

عن قلالي الجميلة . . أحكي !



بالقلم الرصاص

عثمان الماجد

تشكل مجالس العزاء سانحات وقتية لتذكّر مآثر ما تركه المتوفى من أقوال وما أتاه من أفعال مع تحري الابتعاد أو السكوت عمّا قد يكون من غير اللائق ذكره في تلك المجالس، تأسيا على القول النبوي الكريم « أذكروا محاسن موتاكم». وما زالت هذه المجالس تحتفظ بطقوسيتها التي توارثها المجتمع بالرغم من سعة الأماكن والإمكانيات التي تتيحها للمعزين؛ خصوصا إذا ما تصادف بينهم وجود أصدقاء طفولة طفق بهم الحنين ودعاهم إلى أن يتخالسوا الوقت ليجلسوا معا مدة أطول ويبحروا في الذاكرة، كعادة كل من جار عليهم الزمن، نتيجة لظروف الحياة ومتغيراتها، وضنّ عليهم بمتسع من الوقت فيه يلتقون، وحكم بلقاءات متباعدة جدا فيما بينهم.

في مجلس عزاء أقيم لتقبل التعازي بوفاة طيب الذكر المرحوم « مبارك بن جمعه» أحد أطياب قلالي الذين جلبوا ماضيهم إلى حاضرنا وأسبغوا عليه من أريحية كرمهم الكثير في مسعى تلقائي منهم للحفاظ على عناصر التماسك الاجتماعي للقرية، وأودعوا في عقولنا وقلوبنا عسارة تعاملاتهم الإنسانية مع بعضهم البعض ومع الجوار الجغرافي، في هذا المجلس أتيح لي أن التقى مجموعة من أصدقاء الطفولة؛ وحيث إن للزمن وطأه فقد داس بثقل خطواته على ملامحنا حتى أبقى على أحفوراته وأخاديده ليغير كثيرا منها، ونحن الذين كنا نعتقد بأنها خالدة لا تتغير! ولهذا كان من الصعب على الواحد منا في تلك اللحظة أن يتعرف على الآخر من نظرة أولى خاطفة. ومن بين هؤلاء الأصدقاء عبدالله الدخيل الذي يفسر لك طيبه وكرمه بعض من سجايا أهل القرية.

اجتررت مع الصديق عبدالله مشاهد واستعدت وإياه مواقف حدثت في زوايا القرية البرية، و«غيبها» البحرية،

أيام كنا مرميين في حضان البحر ننام على أنغام موجات مده وهي تتكسر عند عتبات بيوتنا محدثة موسيقى لاتزال نائبة في قاع ذاكرة أهلها، ونصحو على جزره حتى يُظهر أرزاق الناس التي بددها الزمن ولم يطال التعويض كل أهلها الحقيقيين. لم يكن الحديث ليتناول مواقف من مغامرات الطفولة أو المراهقة بقدر ما كان استدعاء من الذاكرة لمشاهد من بعض سلوكيات أولئك الرجال الذين شكلوا في مجموعهم أبوة واحدة لكل أطفال القرية. قلت للصديق « عند سماعي لأي خبر عن وفاة أحد من رجالات قلالي، أقول في نفسي ها قد انفطرت وتدرجت إلى المغيب الأبدي حبة لؤلؤ أخرى من العقد الذي يتزين بها جيد قلالي، « قال لي: « صدقت، وأظن أن ما تبقى في العقد من حبات اللؤلؤ قليل جدا». ورحنا نتذكر من تبقى من الرجال واحدا واحدا، وانعطفنا على تذكر زوجاتهم اللاتي كن في منزلة أمهات لنا. ومع ذكر كل اسم نستحضر شيئا مما كان يقول أو يفعل. وقد حرّك فيني هذا الحديث شعورا بالرغبة في زيارة بعض من الأماكن التي ترك فيها أصحابها ذكرى وأثرا، فطلبت من زوجتي أن ترافقني ونطلق أرجلنا في جولة للمناطق القديمة من قلالي بنيتة نهب الفرصة المتاحة بفعل الظرف الاجتماعي الكثيب الذي ازدحمت فيه أسماء، وتكثفت مواقف لرجال غادرونا وتركوا لنا عابق ذكراهم.

وأنا أطوف في محيط المجلس لجهة الشمال الغربي حيث تعمدت ذلك فإذا بي أجد نفسي أقع بمحاذاة منزل المرحوم «عبدالله مبارك»، وهو احد الشخصيات التي لا أتذكر من فعلها الكثير لصغر سني آنذاك من جهة وللتقادم الزمني من جهة أخرى؛ ولكن المؤكد أنه هو من كان يوفر الأمن بحكم وظيفته (ناطور) في سلك الشرطة، واسمه يشكل

رادعا لكل طفل لا يرتدع من تحذيرات والده بعدم الخروج وقت الظهيرة. فإذا كان التلويح «بأم الخضر والليف» مثلا، لا يفيد فقد كان اسمه كفيلا بأن يقوم بما يفيد ويلزما بالبقاء في البيت. كان رجلا مهيبا، وكان اسمه يثير عندي معاني الأمان والألفة والمحبة التي كان يبثها هذا الرجل في الأطفال خصوصا والأهالي عموما من خلال حرصه الشديد على استتباب الأمن وإشاعته في ربوع القرية. ومباشرة بجوار ذلك البيت يقع منزل سالم العلان. ولا أظنني مضطرا إلى التعريف بهذه الشخصية التي تجد لها مكانا في الذاكرة البحرينية والخليجية، فضلا عن ذاكرة أهالي قلالي. فهذه الشخصية تمثل تاريخا من الشقاء والمعاناة التي طال أمدها على أهل البحرين حتى اكتشف النفط. سالم العلان قامه فنية تراثية مبعث فخر لكل أبناء القرية، وإن صوت هذا الرجل وهو يطلق آهاته في لحن شجي يجعل عندي نية البكاء دائما الحضور، والدموع برسم الانهمار في أي لحظة، لماذا؟ ربّ سائل يسأل فأقول إن صوته خزان الآم وأوجاع. أنا حقيقة لا أعرف لماذا عند سماعي له تحملني صرخاته الحزينة إلى ذكرى ليلة شتوية عاصفة باردة كثيبة من ستينيات القرن السابق حين تسرب بين الأهالي خبر حزين يحكي حدوث فاجعة غرق سفينة النوخة المرحوم أحمد بن عيسى الجودر واستقرارها في مجاهيل بحر عميق.

الأسماء التي لها حضورها في مجتمع قلالي كثيرة ولا يسعني المقام هنا في هذه المساحة الصغيرة حصرها، ولكن الأمل معقود على أعضاء مجلس إدارة نادي قلالي في أن يوجدوا من له القدرة على البحث والتقصي في تاريخ القرية ومآثر رجالها المؤسسين، وما الأسماء التي عرضت لها إلا نماذج ليس إلا.